مقبرة الفردوسي ..
فضاء جمالي يحتضن شاعر «الشاهنامة»

يختلف الكثيرون بشأن حقيقة ومواقف وأشعار وملحمة الشاعر الإيراني أبو القاسم الفردوسي المولود في منطقة «طوس» في عام ٩٤٠م والمدفون فيها عام ١٠٢٠م.

ويصف بعض المؤرخين الفردوسيّ بأنه قومي متطرف جدا، فيما يكنّ له الكثيرون في إيران والغرب الاحترام والتقدير، لأنه شاعر فذ وهو صاحب الملحمة التاريخية «الشاهنامة» (كتاب أو ملحمة الملوك)، والتي تعدّ من أكبر الملاحم الأدبية العالمية وأبرزها حيث تتضمن ٦٠ ألف بيت، انهمك الفردوسي على إنشادها ونظمها على مدى ثلاثين عاما.

وبمناسبة مرور الذكرى الألفية لميلاد هذا الشاعر، أزيح الستار في أكتوبر١٩٣٤ عن مقبرة الفردوسي الحالية بمدينة طوس التي تقع بالقرب من مدينة مشهد، مركز محافظة خراسان شمال شرق إيران.

ويرمز المظهر العام للمقبرة إلى المعالم والأبنية المتبقية من العهد الإخميني، وتحديدا الملك الإخميني كوروش بمدينة باسارغاد في محافظة فارس (جنوب إيران).

وتبلغ مساحة حديقة المقبرة نحو ستة هكتارات، ويرتادها سنويا أكثر من مليون سائح ومريد للفردوسي ومحبّ لأشعاره من داخل ايران وخارجها.

وتتوسط المقبرة مزرعة كبيرة رافلة بالأشجار الخضراء الباسقة، وإلى جانب مرقد الشاعر الشهير هناك آثار أخرى ومراكز ثقافية في الحديقة، ومنها أطلال لقلعة طوس القديمة، ومتحف ومكتبة، ومتجر لبيع المنتجات الثقافية، لذا يمكن لمن يزور المقبرة أن يتجول في حديقتها الواسعة ويلتقط الصور التذكارية فيها.

وللوهلة الأولى تبدو المقبرة وكأنها مجرد بناء مجلل ومحفوف بنقوش جميلة، لكنها للمتمعّن فيها تجسد شهادة تاريخية لأولئك الذين أمضوا سنوات طويلة في تشييدها على هيئة تحفة فنية فريدة من نوعها تضم بين طياتها جثمان واحدة من الشخصيات التي أحيت الأدب الفارسي وأنعشت اللغة الإيرانية.

ويقول مؤرخون إن أحد المسؤولين رفض أن يُدفَن الفردوسي في المقبرة العامة التي يَدفن أهالي طوس موتاهم فيها، لذلك دُفن الشاعر في حديقة كان يمتلكها، ثم تحولت الحديقة إلى مقبرة مستقلة عن سائر مقابر المدينة. وما يدعو للانتباه أن الكثير من الرحالة والمؤرخين وعلماء الجغرافيا حينما يتحدثون عن تأريخ طوس فإنهم يتطرقون بشكل مقتضب إلى بعض مقابرها القديمة ومن دُفن فيها، لكنهم لا يشيرون إلى مقبرة الشاعر الفردوسي.

وتشير الدراسات إلى أن أول مؤرخ تحدث عن مقبرة الفردوسي هو حمدالله مستوفي الذي عاش في القرن الثامن للهجرة، حيث دوّن عنها بعض المعلومات بعد مضي ثلاثة قرون ونيف على وفاة الشاعر، وبعد ذلك بادر بعض الباحثين إلى الحديث عن هذه المقبرة وذكروا أسماء بعض الأمراء والوزراء دون أن يتطرقوا إلى تأريخ تشييدها.

وفي العهد القاجاري بادر بعض الباحثين الإيرانيين إلى البحث عن الموقع الذي دُفن فيه رائد لغتهم، وبعد بحث مضن اكتشفوه وشيدوا عليه بناية فخمة من الطابوق، ومع ذلك أصبح مصير هذا البناء في طي النسيان.

وفي عام ١٩٢٢ وبعد ١٦ عاما من الثورة الدستورية، تنامت النزعة الوطنية لدى الإيرانيين وسارعوا مرة أخرى إلى إحياء تراثهم الثقافي، فقام بعض المهتمين بتأسيس جمعية الآثار الوطنية، وكان من جملة نشاطاتهم بناء مقبرة مجللة وفخمة للشاعر الفردوسي، فجمعوا تبرعات لهذا الغرض، وبعد سنتين قدمت الجمعية طلبا للبرلمان بدعمها ماليا، ثم تولت الحكومة دفع جانب كبير من نفقات البناء لتبدأ بعد ذلك عملية التشييد بشكل عملي.

ولم تكن الأموال هي المشكلة الوحيدة التي اعترضت طريق بناء مقبرة الشاعر الفردوسي، فحتى ذلك الزمن لم يكن القبر الحقيقي قد اكتُشف بعدُ، لذلك تم تشكيل هيئة خاصة في عام ١٩٢٦ لاستكشاف موقع الدفن، وبعد بحث وتحقيق ومطالعات واسعة رجّحوا أن الفردوسي مدفون في حديقة كان يمتلكها آنذاك ميرزا محمد قائم التولية والتي اسمها «حديقة الفردوسي»، وفعلا اكتشفوا حجرا يبلغ طوله ستة أمتار وعرضه خمسة

أمتار، وحينما رفعوه وجدوا قبر الفردوسي تحته وكان قد وُضع في العهد القاجاري حينما تم تشييد القبر لأول مرة آنذاك.

وقد بادر صاحب الحديقة التي مساحتها ٢٣ ألف متر مربع، بإهدائها لجمعية الآثار الوطنية، ومنذ ذلك الزمن بدأت الفعاليات الخاصة ببناء المقبرة تجري على قدم وساق.

وتشير التقارير إلى أن المهندس المعماري كريم طاهر زاده هو الذي صمم شكل الهيكل العام للمقبرة والتي تم افتتاحها في عام ١٩٣٤، ولكن التصميم الذي نراه اليوم يختلف عنه بالكامل.

ورغم تحمل الجمعية الوطنية للآثار مسؤولية تشييد المقبرة، إلّا أن العمل لم ينجَز وفق أصول وضوابط علمية دقيقة على صعيد نوعية مواد البناء المستخدمة، حيث شيدوا بناء بارتفاع ١٨ مترا، لكنه بدأ يتصدّع بالتدريج بدءا من دعائمه الأساسية وأوشك على الانهيار إلى أن اتُّخذ قرار بهدمه بعد ثلاثين عاما، وبالفعل فقد هُدم عام ١٩٦٣ وأعيد تشييده من جديد باستحكام أكثر وعلى نطاق أوسع، حيث استمر العمل أكثر من أربع سنوات لتشرع أبواب المقبرة للزائرين في عام ١٩٦٨. وفي هذه المرحلة تم تشييد مبانٍ أخرى إلى جانب المقبرة، بما فيها مكتبة ومطعم وفندق وشارع كبير.

ويعلو المقبرةَ تمثالٌ للشاعر الفردوسي منحوت من حجر الرخام الأبيض بيد التشكيلي الإيراني أبو الحسن صديقي.

وتشير الدراسات إلى أن الفردوسي تتبّع في ملحمة الملوك (الشاهنامة) تاريخ ملوك إيران وسيرهم المتناثرة في المصادر المكتوبة، ولاسيما «الكتاب بهلوي» (خوتاي نامك أو خداي نامه) والذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية في القرن الثاني للهجرة تحت عنوان «تاريخ الرسل والملوك». كما قرأ الفردوسي الملاحم النثرية السابقة، كشاهنامة أبو المؤيد البلخي، وشاهنامة أبو علي البلخي، وشاهنامة أبو منصوري. واطلع على الروايات الشفهية للحكايات والحوادث الحماسية الإيرانية القديمة والتي كانت تدور على ألسنة الرواة والنقالين ولا سيما طبقة الأشراف والسدنة.

وكان الفردوسي إلى جانب إلمامه بالثقافة الفارسية وتاريخها، متبحرا في الأدب العربي والثقافة الإسلامية والفلسفة والبلاغة والكلام.. ولعلّ أشعاره تثبت ذلك، ولقبه «الحكيم» يؤكد هذه الحقيقة.

وقدّم الفردوسي ملحمته الشعرية إلى السلطان محمود بن ناصر الدين غزنوي، لكنه لم ينل مراده، بل كدّر خاطره بعد أن أخلف السلطان وعده بمنحه الجائزة المقررة بستين ألف دينار، فهجاه الفردوسي وهرب من غزنة باتجاه دياره وبقي هناك حتى وفاته، ويقال إن السلطان محمود ندم على فعلته وأرسل له المكافأة، لكن حينما وصلت بوابة طوس كانت جنازة الحكيم تشيَّع من بوابة أخرى.

واستعرضت الشاهنامة سير خمسين ملكا امتدوا على ثلاثة أجيال من الحكومات هي: البيشدادية والاشكانية والساسانية، وفق ثلاث مراحل هي: المرحلة الأسطورية، والمرحلة البطولية أو الحماسية، والمرحلة التاريخية.

وتبدأ المرحلة الأسطورية بعهد كيومرث، وهو أول ملك أسطوري قديم تميّز عصره بالاكتشافات الحضارية، كالنار والمعادن والأسلحة، وتنتهي تلك المرحلة بعهد حكم الملك فريدون.

أما المرحلة البطولية أو الحماسية فهي الأغنى والأهم والأجمل في الشاهنامة، حيث تبدأ مع مواجهة بين كاوه الحداد والملك الضحاك وتربُّع فريدون على عرش السلطة، وتنتهي بمقتل البطل الأسطوري رستم. وقد استطاع الفردوسي أن يجسد أرفع القيم الإنسانية والحماسية والاجتماعية والفكرية والدينية في شخصيات أبطاله، لا سيما «رستم»، بطل أبطاله.

وقد ذاعت هذه الملحمة في أنحاء العالم الإسلامي شرقا وغربا، وتُرجمت إلى أكثر لغات شعوبه، لا سيما العربية والتركية، وتتجلى قيمتها في أنها جمعت التاريخ الفارسي المبعثر بين الصدور والسطور في ملحمة واحدة تشتمل على العناصر الحماسية العالمية، بل تفوق الحماسيات الأخرى، إذ إن الشاهنامة تحوي عشرات الملاحم التي لا تقل أيّ منها عن أيّ ملحمة عالمية أخرى.

المصدر: العمانية